سلسلة الثقافة الإسلامية

(١١٣)

المؤمنون
بين
الإبتلاء والرجاء

محمد مهدي الآصفي

بسم الله الرحمن الرحيم

مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات
الشيخ محمد مهدي الآصفي

هوية الكتاب

اسم الكتاب .... المؤمنون بين الإبتلاء والرجاء

المؤلف .... محمد مهدي الآصفي

الطبعة الأولى .... ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

الكمية ٥٠٠٠

المطبعة .... مجمع أهل البيت عليهم السلام في النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ
فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ
يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾

النساء: ١٠٤

الظروف التاريخية لنزول الآية

بعد انتكاسة المسلمين في معركة أُحد، عاد رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون إلى المدينة وقد استشهد منهم سبعون وجرح منهم سبعون.

وبات وجوه الأنصار تلك الليلة على باب رسول الله صلى الله عليه وآله خوفاً من الأعداء ، فلمّا طلع الفجر أذّن بلال لصلاة الفجر، وصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله الفجر بالمسلمين؛ فقدم رجل قد مرّ في طريقه بقريش إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فاستخبره النبي صلى الله عليه وآله عن أبي سفيان ، فقال : نازلتهم (مررت بهم)، فوجدتهم يتلاومون يقول بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً. أصبتم شوكة القوم، ثم تركتموهم ، ولم تبيدوهم وقد بقي منهم رؤوس من يجتمعون لكم)[1].

فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بلالاً ينادي : إن رسول الله يأمركم بطلب عدوّكم، ولا يخرج معنا إلاّ من شهد القتال بالأمس.

فخرج سعد بن معاذ إلى داره يأمر قومه بالمسير، وكلّها جريح فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله يأمركم أن تطلبوا عدوّكم، فقال أسيد بن حضر ـ وبه سبع جراحات ـ يريد أن يداويها ـ

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٢: ٢٢٢.

سمعاً وطاعة لله ولرسوله، وأخذ سلاحه ولم يعرج على دواء، ولحق برسول اللهصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

وجاء سعيد بن عبادة قومه، وجاء أبو قتادة إلى طائفة فبادروا جميعاً. وخرج من بني سلمة أربعون جريحاً ـ وبالطفيل بن النعمان ثلاثةعشر جريحاً، وبخراش بن الصمة عشر جراحات ـ حتى وافوا رسول اللهصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فقال لمّا رآهم: «**اللهمّ أرحم بني سلمة**» .

واستخلف رسول اللهصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ على المدينة ابن اُم مكتوم، وأقام على حرسه عباد بن بشر.

وكان عبد الله ورافع ابنا سهل بن رافع بن عدي بن زيد بن اُمية بن زيد الأنصاريان، رجعا من اُحد وبهما جراح كثيرة فخرجا يزحفان، فضعف رافع فحمله عبدالله على ظهره عقبة ومشى عقبة، فدعا لهما رسول الله لما أتياه وقال: إن طالت بكم المُدّة كانت لكم مراكب في خيل وبغال وإبل، وليس ذلك بخير لكم.

ولمّا إجتمع الناس ركع رسول اللهصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ركعتين في المسجد، ودعا بدرعه على باب المسجد، فخرج وعليه الدع والمغفر، فركب ، وإذا بطلحة ، فقال: يا طلحة ، سلاحك، فاسرع ولبس سلاحه، وبه تسع جراحات ، وأقبل فقال لهصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أين ترى القوم الآن؟ قال: هم بالسيالة. قال: ذلك

ظننت، أما إنّهم يا طلحة لن ينالوا منّا مثل أمس علينا حتّى يفتح الله مكة علينا»[1].

وكانت غزوة أُحد يوم السبت لسبع خلون من شوال، وخروج رسول الله ﷺ من المدينة إلى (حمراء الأسد)[2] إرعاباً لقريش يوم الأحد لثمان ليالٍ خلون من شوال، على رأس اثنين وثلاثين شهراً من هجرة رسول الله ﷺ.

يقول جابر بن عبدالله الأنصاري، قلت : يا رسول الله : إن منادياً نادى إلا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس، وقد كنت حريصاً على الحضور، ولكن أبي خالفني على أخوات لي وقال: يا بني، لا ينبغي لي ولك أن ندعهن، ولا رجل عندهن، وأخاف عليهن وهن نسيات ضعاف، فأذن لي يا رسول الله أن أسير معك، فأذن له رسول الله ﷺ.

وطلب عبدالله بن أُبي أن يخرج مع رسول الله ﷺ ولم يكن قد خرج يوم السبت فلم يأذن له[3].

قال جابر: فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال بالأمس غيري.

وخرج رسول الله ﷺ وهو مجروح، في وجهه أثر

(١) الأمتاع والمؤانسة للمقريزي ١: ١٧٨ .
(٢) تقع على مسافة ثمانية أميال من المدينة.
(٣) تاريخ الإسلام للذهبي ٢: ٢٢٢ وما بعده.

الحلقتين، ومشجوج في جبهته في أصول الشعر، ورباعيته قد شظيت، وشفته قد كُلِمت باطنها، ومنكبه الأيمن متوهن بضربة ابن قميئة، وركبتاه محجوشتان.

هذا وقد حشّد الناس، ونزل أهل العوالي حيث جاءهم الصريخ[1].

وانطلق رسول الله صلى الله عليه وآله بالمسلمين من المدينة إلى (حمراء الأسد) على مسافة ثمانية أميال من المدينة.

ومرّ به معبد بن أبي معبد الخزاعي، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح لرسول الله صلوات الله عليه وآله بتهامة، لا يخفون عنه شيئاً بها، ومعبد يومئذ مشرك، فقال: يا محمد، والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله عزّ وجلّ عافاك فيهم، ثم مضى يريد مكة، ورسول الله بحمراء الأسد. فلقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء، وقد اجتمعوا للرجوع إلى رسول الله صلوات الله عليه وآله وأصحابه، وذلك أنهم اجتمعوا هنالك، وقالوا: والله ما صنعنا شيئاً أصبنا جل القوم وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم.

فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له: ما وراءك يا معبد؟

---

(١) الأمتاع والمؤانسة للمقريزي : ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

قال: محمد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرّقاً، وقد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم ذلك، وندموا على ما صنعوا، وبهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط. قال: ويلك ما تقول؟! قال: والله ما أرى أن ترحل حتّى ترى نواصي الخليل. قال: فوالله لقد أجمعنا للكرة عليهم حتّى نستأصل بقيتهم. قال: فإنّي أنهاك عن ذلك فوالله لقد حملني ما رأيت (منهم) أن قلت أبياتاً أردت أن أبعث بها إليك ثم جئت بنفسي. قال: وما قلت؟ قال:

كادت تهد من الأصوات راحلتي
إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل
تردى بأسد كرام لا تنابـــــلة
عد اللقاء ولا ميل معازيـــــــل

فساء ذلك أبا سفيان ومن معه، وقال لهم صفوان بن أمية بن خلف: إن القوم قد حزبوا ـ أي غضبوا ـ وقد خشيت إن عاودتموهم أن يكون لهم قتال غير الذي كان، وقد أصبتم ما أصبتم فارجعوا، فرجعوا.

ولقى أبو سفيان ركباً من عبدالقيس يريدون المدينة يمتارون منها. فقال: هل تبلغون عنّي محمّداً رسالة وأنا أحمل

لكم أجمالكم إذا إنصرفتم زبيباً (بعكاظ)؟ قالوا: نعم. قال: تخبروه إنا أزمعنا الرجوع إليه وإلى أصحابه لنستأصل شافتهم، فمروا برسول الله صلوات الله عليه وآله وهو بحمراء الأسد، فقالوا ذلك. فقال رسول الله صلوات الله عليه وآله: «**والذي نفسي بيده لقد سومت لهم حجارة لو صبحوا بها لكانوا كالأمس الذاهب**»[١].

وعن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من بني عبدالأشهل قال: شهدت أُحداً مع رسول الله صلى الله عليه وآله أنا وأخ لي، فرجعنا جريحين ، فلما أذّن مؤذّن رسول الله صلى الله عليه وآله بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي وقال لي: لا تفوتنا غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وآله. ووالله ما لنا من دابة نركبها وما منا إلا جريح، فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وكنت أيسر جراحة منه ، فكان إذا غلب حملته عقبة ومشى عقبه، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون[٢].

وكان قد بعث رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة نفر طلبة في آثار القوم، وذلك قبل أن ينطلق من المدينة إلى حمراء الأسد، فانقطع أحدهم، ولحق إثنان بقريش، فبصروا بهما، فقتلوهما

---

(١) شرح الأخبار للقاضي النعمان المغربي : ٢٨٣ ـ ٢٨٤؟

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ٢: ٢٢٢ فما بعدها.

(رحمهما الله) ، وانتهى رسول اللهﷺ إلى مصرعهما بحمراء الأسد، فقبرهما[1].

وكان رسول اللهﷺ يأمرهم في النهار بجمع الحطب، فإذا أمسوا أمر أن توقد النيران، فيوقد كل رجل ناراً، فكانت خمسمائة نار، حتّى كانوا يرون من المكان البعيد.

يقول جابر: (وذهب معسكرنا ونيراننا في كل وجه حتّى كان مما كبت الله به عدوّنا) [2].

فأقام رسول الله بحمراء الأسد ثلاثاً: الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة، وكان جل زادهم التمر، وحمل سعد بن عبادة ثلاثين بعيراً تمراً وساق جزراً فكان ينحر في يوم اثنين وفي يوم ثلاثاء.

وعرفت هذه الواقعة بواقعة (حمراء الأسد). وفيها نزلت الآيات التي قدمناها من سورة النساء.

المؤمنون بين البتلاء والرجاء

﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ

---

(١) أعيان الشيعة ١: ٢٥٩.

(٢) مغازي الواقدي ١: ٣٣٤ وما بعده.

يَرْجُونَ﴾[1].

التكافؤ واللاتكافؤ في الإبتلاء والرجاء

أوّل مشهدين نشهدهما في آية (النساء: ١٠٤) حالة التكافؤ، في الإبتلاء ، واللاتكافؤ في الرجاء بين المسلمين والكفّار... وإليك التوضيح.

حالة التكافؤ في الإبتلاء

في الصراع القائم بين المسلمين والمشركين يتبادل الطرفان الإبتلاء وقروح المعركة، يزيد هذا الطرف أو ينقص، ولكن الإبتلاء يعمّهما ويشملهما، جميعاً، **﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾**[2].

هذه القروح لا يمكن أن يسلم منها طرف يشارك في المعركة المصيرية القائمة بين الإسلام والشرك، إنّها من ضرورات المعركة ومتطلبات الصراع، لا محيص عنها للمسلمين، إلاّ بإخلاء الساحة لأئمة الكفر والاستكبار، عندئذٍ

---

(١) النساء: ١٠٤.

(٢) النساء: ١٠٤.

يبدلهم الله تعالى بالعزّ والقوّة ذُلاً وضعفاً ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُه**﴾[1].

وهذه واحدة من حتميات الساحة، ومتطلّبات الصراع للطرفين، التي لابد ان تقع فلا ينبغي أن يوجب وهناً ولا حزناً.

إنّما الوهن فيما يمكن أن يقع أولا يقع ، وفيما يمكن اجتنابه.

أما السنن الإلهية الحتمية التي لابدّ أن تقع لطرفي المعركة جميعاً، فلا توجب وهناً ولا حزناً، إلاّ أن ينسحب المسلمون من المواجهة المصيرية مع المشركين وعندئذٍ فقط يقع الوهن والحزن فيهم، ويستبدلهم الله بالعزّ ذُلاً وبالقوّة ضعفاً وبالكرامة مهانةً.

وهذا هو المشهد الأوّل: وهي حالة التكافؤ في الإبتلاء.

عدم التكافؤ في نوعية الإبتلاء

ويقرّر القرآن في شطر الإبتلاء، الذي يتكافؤ فيه المعسكران، فارقين جوهريين في نوعية الإبتلاء. فإنّ المسلمين والمشركين إذا تكافئا في الإبتلاء من حيث الكم،

(١) آل عمران: ١٣٩.

فإنّهما يختلفان اختلافاً جوهرياً في نوع الإبتلاء من حيث الكيف.

وشتّان بين الإبتلاء الذي يمسّ المسلمين في ضراء المعركة وبأسائها، والإبتلاء الذي يصيب المشركين.

إنّ إبتلاء المشركين ينقلب في حياتهم إلى محق وعذاب وهلاك وسقوط، وإبتلاء المسلمين ينقلب في حياتهم إلى تمحيص وتهذيب وتصفية لما في نفوسهم من نقاط الضعف. وتمحيص وتهذيب لما في جماعتهم من عناصر ضعيفة ومدسوسة.

فلنقرأ آيات آل عمران المباركة (١٤٠ ـ ١٤١) بهذا الصدد بتأمّلٍ ومتعّن:

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُم مُؤْمِنينَ* إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

وإليك توضيح هذين الفارقين بين الإبتلاء في آيات آل عمران.

الفارق الأوّل

إنّ تداول النصر والهزيمة والإبتلاء والقروح بين المعسكرين، يتمخّض في سنن الله عن فرز وتصفيه هامّة في التاريخ والمجتمع.

في هذا الفرز والتصفية يختار الله المؤمنين للقيمومة على الناس، ويتّخذ منهم شهداء وأئمّة يقودون المسيرة البشرية إلى الله. أئمة وقادة وأدلّاء وهُداة، يوجّهون الناس، ويهدونهم إلى الله، وينبذ الله تعالى الظالمين، ويمقتهم، ويدفعهم عن صراطه المستقيم، فيوكل أمرهم إلى أنفسهم وأهوائهم.

وهذا الفرز والتصنيف والتصفية للناس تتم في جوّ تداول البأساء والضرّاء والقروح والآلام والنصر والهزيمة، وليس في أجواء السلامة والعافية.

تأمّلوا في في آيات آل عمران: ﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾.

لقد نصرهم الله تعالى ببدرٍ، وأذاق أعداءهم مرّ الهزيمة ودحرهم ، ثمّ أطعمهم يوم أُحد مرارة النكسة، بعد نشوة النصر في بدر. ولو كانت أيّام المسلمين كلّها نشوات لأخذهم البطر والرئاء، ولم يكن الله تعالى ليتّخذهم شهداء وأئمّة يقودون الناس إلى التوحيد والعدل وشريعة الله ودينه.

إنّ التقلّب في البأساء والضرّاء والإبتلاء والقروح في سبيل الله أعدّهم لهذه الغاية. ودَحَرَ أعداءهم الظالمين

المستكبرين وأذاقهم الذل والهزيمة.

هؤلاء وأُولئك ذاقوا بأساء المعركة وضرّائها، فاختار الله تعالى هؤلاء واتّخذهم أئمّة وشهداء ودحر أُولئك ونبذهم ومقتهم وأنهى دورهم على وجه الأرض.

الفارق الثاني

والفارق الثاني؛ إنّ هذا الإبتلاء الذي يجري في صفوف المسلمين والمشركين على نحو سواء يتمخّض في سنن الله تعالى عن نتيجتين مختلفتين تماماً.

يصفّي المؤمنين ويهذّبهم ويشذّبهم ويُنقّيهم في داخل نفوسهم، وهذا هو (التمحيص)، وفي نفس الوقت يهلك أعدائهم ويبيدهم.

وهذه هي التصفية الاولى وتجري في داخل نفوس المؤمنين والتصفية الثانية تجري داخل جماعة المؤمنين. ففي جماعتهم مؤمنون أقوياء وآخرون ضعفاء الايمان، وفي جماعتهم المؤمنون والمنافقون، والصادقون والكاذبون... ومرارة الانتكاسة في (أحد) كما هذب نفوسهم وصفاها ونقاها، كذلك هذبّ جماعتهم، واخرج منها العناصر الضعيفة والمنافقة والكاذبة.

إنّ التصفية الأولى تتم في نفوس المؤمنين، والتصفية الثانية تتم داخل جماعة المسلمين.

إنّ في نفوس المؤمنين إقبالاً وإدباراً، ويقيناً وشكّاً ،

وتوحيداً وشركاً، وذكراً وغفلة، وقوّة وضعفاً... وهذه الإبتلاءات التي تصيب الطرفين في ساحة المعركة والصراع تمخّض في سنن الله عن تصفية وتمحيص لنفوس المؤمنين، فتخلص لهم أنفسهم وتصفو قلوبهم.

بينما تؤدّي الإبتلاءات والقروح نفسها إلى هلاك الظالمين، وهذا هو (المحق).

وقد قلت في موضع آخر ؛ إنّ مثل ذلك: النار تضرب الخليط المعدني الذي يستخرجه الناس من معادن الذهب، فتفرز ذرّات التراب عن ذرّات الذهب فيتحوّل هذا الخليط إلى سبائك من الذهب، بينما النار نفسها تضرب الخشب فتحرقه.

ليس الفرق في النار، وإنّما الفرق بين معدن الذهب والخشب.

والتصفية الثانية تجري داخل الجماعة المسلمة، تفرز عن جماعتهم العناصر المنافقة والكاذبة والضعيفة، كما قلنا.

وهذا هو المشهد الأوّل في آية النساء (١٠٤) .

حالة اللاتكافؤ في الرجاء

وتنتقل آية النساء الآن (١٠٤) من حالة التكافؤ في الإبتلاء بين الجبهتين المتصارعتين إلى حالة اللاتكافؤ في الرجاء.

﴿**وترجون من الله ما لا يرجون**﴾[1]، وهذه هي النقطة الجوهرية الفارقة بينهما.

إنّ الإيمان بالله القويِّ، العزيز، المقتدر، الواهب، الكريم، يمنح المؤمن رجاءً لا حدّ له، وثقة مطلقة بالله، وتوكّلاً وتفويضاً إلى الله، وهذا ما يفقده المعسكر الآخر بالضرورة.

وهذا الرجاء غير المحدود، والثقة المطلقة تمنح المؤمنين مقاومة وصلابة على أرض المعركة، لا يملكها الطرف الآخر بالضرورة.

وهو من أهم أسباب سقوط الحضارات المادية وانهيارها وقيام حضارة التوحيد واستمرارها على وجه الأرض. وهاتان معادلتان، نتوقّف عندهما:

الإيمان بالله: ⟵ الرجاء.

الرجاء: ⟵ المقاومة والثبات.

المعادلة الأُولى

إنّ الإيمان بالله يعادل الرجاء ، بالضرورة؛ لأنّ الله تعالى باسط اليدين بالرحمة، لا يُردّ دعاء عبده ورجاءه، ولا يخيّب من رجاه ولجأ إليه ، واسع الرحمة، ﴿**كتبَ على نفسه**

(١) النساء: ١٠٤.

الرحمه﴾[1] **﴿الرحمن الرحيم﴾** الكريم، الودود، الوهّاب ، **﴿خير الراحمين﴾**[2] **﴿أرحم الراحمين﴾**[3] **﴿ذو الرحمة﴾**[4] **﴿قريب من المحسنين﴾**[5] **﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾**[6] يهب مَن يشاء ، ما يشاء بلا حدود **﴿يفعل ما يشاء﴾**[7] يستجيب لرجاء عباده ودعاءهم ويرزقهم ما يسألونه **﴿وقال ربّك ادعوني استجب لكم﴾**[8].

وهذه الحقائق الإيمانية تمنح المؤمنين رجاءً بالله تعالى لا حدّ له، وثقةً لا حدّ لها.

المعادلة الثانية:

والرجاء بالله تعالى يمنح الإنسان المقاومة والثبات والصلابة في الموقف، وعلى أرض المعركة.

---

(١) الأنعام: ١٣.
(٢) المؤمنون: ١٠٩
(٣) يوسف: ٦٤.
(٤) الأنعام: ١٣٣.
(٥) الأعراف: ٥٦.
(٦) البقرة: ٢٥٥.
(٧) آل عمران: ٤٠.
(٨) غافر: ٦٠.

إنّ الإنسان يصيبه الاسترخاء والضعف والعجز والجبن في حالة الترف والرفاه واليسر، إذا حجبته النعمة والرفاه عن الله، وفي حالة البأساء والضرّاء، إذ أفقد الرجاء والأمل في الله.

فإذا حفظ العبد تعلّقه بالله وارتباطه به وحضوره بين يديه لا يضعف في رفاه ويسر ولا في بأساء وضرّ.

إنّ اليسر والرفاه، وكذلك البأساء والضرّاء، يستنفذان طاقة الإنسان ومقاومته، لا ريب في ذلك.. فإذا أبقى الإنسان حبله موصولاً بحبل الله، ووصل رجاءه وثقته بالله لم تضرّه سرّاء ولا ضرّاء، وأكسبه رجاؤه في الله قوّة ومقاومة وممانعة.

وعي سنن الله

ومن العوامل التي تمنح الإنسان المقاومة، والثبات والصبر، والصلابة، على أرض المعركة وعي سنن الله.

إنّ المريض الذي يعي ما يريد الطبيب الجرّاح أن يصنع به لا يجزع ، ولا يقلق ، ويتحمل سكين الجرّاح ، بطمأنينة وسكينة... وأما الطفل الذي لا يعي الخدمة التي يقدّمها له الطبيب فيضطرب ويجزع تجاه سكين الجراحة.

كذلك المؤمنون الذين يعون سنن الله تعالى في التاريخ والمجتمع لا يقلقون ولا يجزعون لما يصيبهم من بأساء المعركة وضرّاء المواجهة.

ويعلنون إنّ وراء هذه البأساء والضرّاء والشدة والإبتلاء:

الفتح والنصر وإندحار الظلم والشرك . إنّنا نقرأ سنن الله تعالى في القرآن فتمتلأ نفوسنا ثقةً ورجاء بالله تعالى، ونتحرك في ساحات المواجهة بطمأنينة وثبات.

يقول تعالى: ﴿**ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين**﴾[1] ﴿**إنّا لننصر رُسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا**﴾ ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم**﴾[2]. ﴿**إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**﴾[3].

إنّ سنن الله تعالى والإيمان بها تمنح الإنسان القوّة والمقاومة والصبر والثبات.

الأمل الصادق والأمل الكاذب

ومادمنا قد تحدّثنا عن الرجاء والأمل ، فلابد أن نتوقّف عند كلمة (الأمل) بعض الوقت.

إن الأمل ليس على نحو واحد في حياة الإنسان.

فقد يكون (الأمل) من الأمل الصادق الذي ينفع الناس، ويبعث في نفوسهم الثقة والطمأنينة ، وقد يكون من الأمل

---

(١) القصص: ٥ ـ ٦.

(٢) سورة محمّد: ٧.

(٣) الأعراف: ١٢٨.

الكاذب الذي يشبه (أحلام اليقظة) في حياة الناس، لا يعتمد على أساس علمي وموضوعي. ولابدّ من التفريق بينهما.

مقوّمات الأمل الصادق

أهم مقوّمات الأمل الصادق ثلاثة:

١ ـ أن يكون الأمل في الله تعالى.

٢ ـ أن يقترن الأمل بالعمل.

٣ ـ أن يكون الأمل طبقاً لسنن الله تعالى والمحاسبات العلمية الموضوعية.. فإذا تجاوز الإنسان سنن الله تعالى والمحاسبات العلمية الموضوعية في آماله كانت آماله أشبه بالأوهام.

وسوف نتحدث عن هذه النقاط الثلاثة لتحديد الأمل الصادق في حياة الناس.

١ ـ الأمل في الله

لهذا العنوان معنيان:

أ ـ المعنى الأوّل أن يجعل الإنسان رجاؤه وأمله في الله، فيرجو الله، ولا يرجو غير الله، وهذا هو **الأمل النازل.**

ب ـ والمعنى الثاني أن لا يرجو الإنسان شيئاً غير الله ولا يطلب في رجائه ودعائه غير الله، وتكون غاية ما يطلبه ويرجوه هو الله، وهذا هو **الأمل الصاعد.** وإليك توضيح كل من هذين الأملين.

أ ـ الأمل النازل

إنّ الموضع الصحيح الذي يضع فيه العبد رجاءه وأمله

هو الله، فلا يصح أن يرجو العبد شيئاً من عند غير الله أو يطلب من غيره.

فإن الله تعلى هو مصدر كل عطاء ورزق في حياة الإنسان ، يهب من يشاء ما يشاء، ويمنع من يشاء ما يشاء.

فلا يصح أن يعدل العبد بأمله ورجائه من الله الواهب الكريم الرازق إلى غير الله ، ويطلب من عند غيره ما يحتاجه من رزق وحاجة.

فهو مصدر كل رزق، ومبدأ كل رزق، وواهب كل رزق، ومن أفدح الخطأ أن يعدل الإنسان في آماله ورجائه من مصدر الرزق ومبدأه إلى غيره.

وبهذا التفسير نضع الأمل والرجاء في حوزة التوحيد في الإيجاب والسلب. فنرجو من الله ولا نرجو من عند غير الله.

وقد ورد هذا المعنى في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام:

«**يا من أرجوه ، ولا أرجو غيره، ولو رجوت غيره لاخلف رجائي**».

فإذا عدل الإنسان برجائه وأمله عن الله تعالى فقد بتر أمله عن الله... وكل أمل ورجاء مبتور عن الله رجاء وأمل خائب بالتأكيد، طال أو قصر.

وقد ورد التأكيد على حصر الرجاء في الله، والإنطلاق من الأمل في الله، في نصوص الأدعية المأثورة من أهل البيت عليهم السلام كثيراً.

ففي مناجاة الأسحار للإمام زين العابدين عليه السلام برواية أبي حمزة الثمالي رضي الله عنه.

«**فإنما أنا أسألك لقديم الرجاء فيك، وعظيم الطمع منك الذي أوجبته على نفسك من الرأفة والرحمة**».

إنّ في الطلب والطمع من عند غير الله ذلاً وهواناً، وهو من عند الله كرامة وعزة، ومهما عظم طمع الإنسان ورجاؤه في الله تعالى، عظم موقعه ومقامه عند الله.

ومن الدعاء الذي يرويه كميل بن زياد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنت موضع أملي**».

وفي النص الوارد في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام المعروف باسم زيارة أمين الله:

«**ومناهل الرجاء لديك مترعة**».

إنّ كل رجاء يضعه العبد في غير الله، مبتوراً عن الله، رجاء خائب لا محالة، وإذا كان رجاء العبد في الله، فلا يخيب، إن شاء الله.

ففي مناجاة الأسحار للإمام زين العابدين برواية أبي حمزة الثمالي:

«**أفتراك يارب تخلف ظنوننا أو تخيّب آمالنا؟ كلا يا كريم، فليس هذا ظننا بك، ولا فيك طمعنا، يارب؛ إنّ لنا فيك رجاء عظيماً عصيناك، ونحن نرجو أن تستر علينا، ودعوناك ونحن نرجو أن تستجيب لنا، فحقق رجاءنا مولانا**».

إنّ الدعاء من أعظم مناهل الرجاء ، وفي أدعية أهل البيت عليهم السلام كنوز من الرجاء والأمل، لم يتهيّأ لها، للأسف

لحد اليوم الحد الكافي من التنظير والشرح.

وقد يكون أمل الإنسان في غير الله، فيرجو أحداً غير الله، فيخيب الله رجاءه، ويقطع أمله، ليستعيد رجاء عبده.

عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام: **«كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإن موسى عليه السلام خرج ليقتبس لأهله ناراً فكلّمه الله عزّوجلّ، فرجع نبياً، وخرجت ملكة سبأ فأسلمت مع سليمان عليه السلام، وخرج سحرة فرعون يطلبون العزّة لفرعون، فرجعوا مؤمنين»**[1].

وفي هذه الكلمة درس بليغ في الرجاء؛ على الإنسان أن يكون أرجى بما في يد الله، مما يجد أمامه في حياته من مواضع الرجاء، فقد رأى موسى بن عمران عليه السلام في الليلة الظلماء ناراً في صحراء سينا، فقصدها ليقتبس منها ناراً لأهله، وهي مقبلة على الولادة، فرجع بالنبوّة والتكليم، وهو ما لم يكن يرجوه في تلك الليلة.

وكانت سارة تسعى بين الجبلين تطلب الماء في الأفق البعيد لرضيعها إسماعيل، ففجر الله تعالى لها الماء تحت أقدام الرضيع.

وخرج سحرة فرعون، وهم يطلبون العزّ والموقع والمال من فرعون، فأتاهم الله تعالى الإيمان.

---

(١) مستطرفات السرائر لابن إدريس: ٣١، وسائل الشيعة الباب ١٤ من أبواب التجارة ح٣، والفقيه ٤: ٣٩٩، بحار الأنوار ١٣: ٣١ و٤٤ و٩٢.

وما أكثر ما وضعنا رجاءنا في بعض ما يضع الناس فيه رجاءهم وآمالهم، فيخيّب الله تعالى لنا رجاءنا فيما رجوناه ، ويؤتينا من عنده ما لم يكن يخطر ببالنا من رحمته ورزقه.

وليس معنى ذلك بالتأكيد: أن لا يطلب الإنسان من غير الله، فإن الناس يدخلون السوق والمزرعة وساحات العمل رجاء الرزق، ويدخلون على الأطباء والمستشفيات ومداخر الأدوية رجاء العافية.

وهذا حقّ لا ضير فيه، وليس من بأس أن يرجو الإنسان الرزق في السوق، والشفاء في الطب، إذا كان رجاؤه في السوق والطب في امتداد رجائه في الله.. وليس ذلك من الشرك في شيء. إنّما الشرك أن يجعل الإنسان رجاؤه في السوق والطب بمعزل عن الرجاء في الله ومبتوراً عن الله (في عرض الرجاء في الله وليس في امتداده).

عندئذٍ يدخل هذا الأمل في دائرة الشرك وفي دائرة والرجاء المبتور، الذي يخيب صاحبه لا محالة طال به العهد أم قصر.

ولا ضير في أن يجعل الأنسان أمله في مزرعة الكرم، ليقتطف منها عنقود العنب، إذا كان لا يبتر هذا الأمل الرجاء من الله في نفس الفلاح الذي يزرع الكرم ويسقيه ويرعاه، ولا ضير في أن يضع الأنسان أمله في الفلاح وجهده وزرعه، إن كان أمله في الفلاح في امتداد أمله بالله تعالى.

وهذا هو الأمل النازل، ينطلق من عند الله تعالى ثم ينحدر إلى الأسباب التي جعلها الله تعالى في اختيار الناس.

ب ـ الأمل الصاعد

والمعنى الثاني للأمل في الله ؛ أن يتسامى الإنسان في الدنيا على كل تعلقاته وطلباته التي يطلبها في الدنيا من الله ، ولا يطلب من الله إلا الله... وهذه النقطة هي غاية آمال العارفين. كما ورد في نصوص أدعية أهل البيت عليهم السلام.

فإن للناس آمالاً شتى في الدينا من أسباب اللهو واللعب والزينة والتفاخر... ولكن العارفين بالله، الذين تذوّقوا حلاوة معرفة الله ورضوانه وحبّه، لا يتعلقون بشيء من أسباب اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر الذي يجدونه في الدنيا.. وإنما تتعلّق قلوبهم بالله وبحبّه ومعرفته.

وإذاكانت غايات الناس وآمالهم في الدنيا وما فيها من أسباب اللهو واللعب... فإن غاية آمال العارفين هي معرفة الله وحب الله والتعلّق بالله ومرضاة الله... وبالاختصار هي الله تعالى .

وهذا هو الأمل الصاعد، الذي يرقى إليه العبد بعد رحلة طويلة في التعلّق بالدنيا وما فيها، بل من الجنة ونعيمها، إلى الله ومرضاته وحبّه ومعرفته فلا تتوقف عندها آمالهم، وإنّما تتجاوز الدنيا وزخرفها، بل الجنّة ونعيمها في حركة صاعدة إلى الله تعالى وقربه ولقائه ورضائه وحبّه وهذه هي أقصى غايات العارفين بالله.

وقد ورد هذا المعنى في نصوص أدعية أهل البيت عليهم السلام .

ففي الدعاء الذي يرويه كميل بن زياد رحمه الله عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«**يا غاية آمال العارفين، يا غياث المستغيثين يا حبيب قلوب الصادقين**».

وفي دعاء الجوشن الكبير:

«**يا غاية الطالبين ياظهير اللاجئين**».

أيضاً في نفس الدعاء: «**يا غاية مراد المريدين**».

وفي دعاء لرسول الله صلى الله عليه وآله: «**يا غاية رغبتاه**».

ولابدّ من أن نقول في ختام هذه الكلمة: إنّ هذا المعنى التصاعدي للأمل ليس بمعنى أنّ العارفين بالله لا يحتاجون ما يحتاجه الناس من الأزواج والبنين والرزق والحركة في السوق، فهم يعيشون كما يعيش الناس، ويحتاجون إلى ما يحتاجه اليه الناس في معيشتهم، ولكن قلوبهم لا تتعلّق إلا بالله تعالى ولقائه وجلاله وجماله وحبّه ورضاه.

٢ ـ العمل

العنصر الثاني المقوّم للأمل: العمل ومن دون العمل يكون الأمل من الأمل والرجاء الكاذب.

وإمارة صدق الأمل: العمل.

يقول تعالى: ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً**﴾[١].

---

(١) الكهف: ١١٠.

الفرق بين الأمل والأماني

وفرق بين الأمل والأماني»

إنّ الأمل يقترن بالعمل دائماً، فمن كان يرجو النجاح في دراسته يجتهد في الدراسة.

ومن كان يرجو الشفاء يجتهد في العلاج من المجاري التي جعلها الله تعالى للعلاج.

ومن كان يرجو زواجاً صالحاً يبحث عن الزوج الصالح.

ومن يريد أن يتوب الله تعالى عليه يتوب إلى الله صادقاً ناصحاً ويقلع عن المعاصي.

وأما الرجاء الفارغ عن العمل فهو من الأماني التي تشبه أحلام اليقظة في حياة الناس.

عن ابن أبي نجران عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قلت لأبي عبدالله عليه السلام : قوم يعملون بالمعاصي، ويقولون نرجو، فلا يزالون كذلك حتّى يأتيهم الموت.

قال: «**هؤلاء يترجحون (يتأرجحون) في الأماني. كذبوا ليسو براجين. إنّ من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف شيئاً هرب منه**»[1].

إن الإمام الصادق عليه السلام يعطينا في هذه الكلمة إمارة واضحة صادقة على الرجاء والخوف، وهما الطلب والهرب، ومن دونهما لا يكون الرجاء رجاءً صادقاً ولا يكون الخوف

---

(١) سفينة البحار ١: ٥١٢.

خوفاً صادقاً.

الرجاء الكاذب

إن الفرق الفارق بين الرجاء الصادق والرجاء الكاذب العمل، فإذا كان رجاء الإنسان مشفوعاً بالعمل المكافئ للرجاء، فهو من الرجاء الصادق، وإذا كان رجاؤه فارغاً عن العمل المكافئ له، فهو من الرجاء الكاذب.

عن الإمام محمّد بن عليعليه السلام: «**إياك والرجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق**»[1].

إنّ إمارة الرجاء الكاذب التي لا تُخطئ تفريغ الرجاء عن العمل... ومن يعيش الرجاء الفارغ عن العمل، لا محالة ينتهي إلى ما كان يحذر ويخاف منه، إنّ المريض الذي يرجو العافية من دون عمل وعلاج لا محالة يتجذر فيه المرض، وينتهي إلى ما كان يحذر ويخاف منه.

والطالب الذي يرجو التوفيق في دراسته من دون عمل، لا محالة ينتهي إلى الفشل في حياته العلمية، وهو ما كان يحذر ويخاف منه.

ومن يرجو الرزق من غير أن يسعى في الأسواق، لا محالة ينتهي إلى ماكان يخاف ويحذر منه من الفقر والحرمان.

(١) بحار الأنوار ٧٥: ١٦٤، تحف العقول (فيما روي عن الإمام الباقرعليه السلام).

ومن كان يرجو الآخرة من غير عمل، لا محالة ينتهي إلى ما كان يحذر ويخاف منه من خسران الآخرة.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيمن يدّعي أنه راج: «**يدّعي بزعمه أنه يرجو الله، كذب والعظيم. ما باله لا يتبيّن رجاؤه في عمله؟ فكل مَن رجا عرف رجاؤه في عمله**»(١).

الأمل والأجل

وللإمام أمير المؤمنين عليه السلام كلام في الأمل يرويه عنه الشريف الرضي رحمه الله في نهج البلاغة، نذكره ونتأمّل فيه إن شاء الله تعالى.

يقول عليه السلام:

«**ألا وإن اليوم المضمار، وغدا السباق، والسبقة الجنّة، والغاية النار، ألا وإنّكم في أيام أمل، ومن ورائه أجل، فمن عمل أيّام أمله، قبل حضور أجله، نفعه عمله، ولم يضرّه أجله، ومن قصّر في أيّام أمله، قبل حضور أجله، فقد خسر عمله، وضرّه أجله**»(٢).

(المضمار) اليوم الذي يتم فيه تحضير الخيل للسباق،

---

(١) بحار الأنوار ٦٣: ٢٤٦.

(٢) نهج البلاغة ١: ٧٠.

قبل أن يدخل في السباق.

وفيما نتحدّث عنه هو المرحلة التحضيرية للسباق المصيري الذي يقبل عليه الناس بين يدي الله تعالى، على «الصراط» وهذا هو اليوم الأوّل (: المضمار).

واليوم الثاني يوم السباق.

وفي السباق ينقسم الناس إلى شطرين؛ مَن يربح السباق ومَن يخسر السباق .

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**ألا وأن اليوم المضمار**».

والمضمار هو الحياة الدنيا، وفي هذه الدنيا يحضّر الإنسان نفسه للسباق الأكبر على «الصراط» يوم القيامة.

ومن يخلد للراحة والعافية في الحياة الدنيا، ولا يرهق نفسه بالتحضير ، ويدع نفسه لهواها، يخسر السباق غداً، البتة...

ثم يقول عليه السلام:

«**وغداً السباق**».

ويوم غد هو يوم الحساب والحشر والنشر، وهو الحياة الآخرة، وفيه يجري السباق الأعظم على (الصراط).

فمن أعدّ نفسه في يوم المضمار ، في الحياة الدنيا، للسباق الأعظم على «الصراط» في الآخرة، يعبر الصراط كالبرق الخاطف، وكان من السابقين ومنهم دون ذلك، بمراتب ودرجات.

يقول تعالى: ﴿**والسابقون السابقون أُولئك المقرّبون**﴾[(١)].

يقول المولى محمد صالح المازندراني رحمه الله في شرح أُصول الكافي:

(إنّ العلم نور يهتدى به إلى المقصود في ظلمات الطبيعة، كما أن بنور القمر يهتدي المسافر إلى الطريق المقصود، وذلك النور يتفاوت بحسب تفاوت القرب والبعد من قرب الحق... وبذلك التفاوت يتفاوت نورهم في القيامة، فمنهم من لا يعرف قدره إلا الله، ومنهم من نوره إلى مدّ بصره، ومنهم من نوره دون ذلك... وبحسب هذا التفاوت يتفاوت مرورهم على الصراط سرعة وبطئاً، فمنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالطير، ومنهم من يمر كعدو الفرس الجواد إلى غير ذلك من مراتب الشدّة والضعف)[(٢)].

وهذا هو يوم السباق الأكبر على الصراط[(٣)]، وهو اليوم

---

(١) الواقعة: ١٠.

(٢) شرح أُصول الكافي ٣: ٧٧.

(٣) نحن نعلم بالصراط، كما علّمنا الله تعالى، ونتوقّف في الحديث عن هيئة الصراط وكيفيته، وذلك إنّ الصراط من الغيب الذي حجب الله تعالى علمه عنّا ولا نتحدث عنه إلا بقدر ما نعرف عنه من الكتاب والسنّة الشريفة.

الثاني بعد يوم المضمار.

ثم يقول عليه السلام:

«**والسبقة الجنّة**».

والذين يفلحون في السباق الأكبر على «الصراط» يجوزون الصراط إلى الجنّة، على مراتبهم ودرجاتهم في التحضير والسباق.

وهو قوله عليه السلام: «**والسبقة الجنة**».

والذين يتخلّفون في السباق الأكبر على «الصراط» ينتهون لا محالة إلى النار.

يقول عليه السلام: «**والغاية النار**».

وهذه الغاية ينتهى إليها الذين تقاعسوا في يوم المضمار في الحياة الدنيا للتحضير للسباق الأكبر على الصراط.

ثم يقول عليه السلام: «**ألا وأنّكم في أيّام أمل، من ورائه أجل، فمن عمل في أيّام أمله قبل حضور أجله نفعه عمله ولم يضره أجله، ومن قصّر في أيام أمله قبل حضور أجله، فقد خسر عمله، وضرّه أجله**».

قد جعل الله تعالى للإنسان فرصة أمل. وهذه الفرصة محدودة بالضرورة، وحدّها الأجل وهذه الفرصة هي كل «رأس مال» الإنسان في الحياة الدنيا.

وهو رأس مال ذائب بالضرورة، يتناقص بالتدريج حتّى ينفذ ، عند حلول أجله، وعندئذ يفقد الإنسان كل رأس ماله.

والأداة الوحيدة إلى تحوّل هذه الفرصة الذائبة ،

المستارعة في التناقص، إلى رأس مال ثابت، صلب، باق، هو العمل الصالح.

فمن عرف كيف يستثمر فرصة الأمل المحدودة، الآخذة في التناقص ويحوّلها إلى رأس مال ثابت، صلب، باق، من العمل الصالح ينفعه عمله.

ومن لم يُحسن إستثمار فرصة الأمل المحدودة المتناقصة بالعمل الصالح، حتى يحلَّ أجله، يخسر حظه كلّه من رأس مال العمل الصالح، ويحلّ عليه أجله، بالخسران الذي لا خسران فوقه وبعده.

روافد الأمل

ومادمنا قد فتحنا الحديث عن الأمل إلى هذا الحدّ، فلابد أن نتحدّث عن الروافد التي جعلها الله تعالى للأمل في حياة الناس.

الرافد الأول: هو العمل: بالتأكيد، وبلا ريب، وهو إمارة الأمل الصادق ، ويتحقّق الأمل بالعمل، ومن دون العمل يبقى الأمل فارغاً ، يشبه أحلام اليقظة كما ذكرنا.

وقد جعل الله تعالى للأمل روافد اُخرى عندما يعجز العمل عن إرفاد الأمل وإسناده.

وهذه الروافد كثيرة في منظومة السنن الإلهية نذكر منها ثلاثة؛ منها الدعاء.. فقد جعل الله تعالى في الدعاء مفاتيح رحمته.

يقول تعالى: ﴿**ادعوني استجب لكم**﴾، وليس في هذه الآية الكريمة بين الدعاء والاستجابة من فاصل وشرط.

صحيح أنه لا يخلو من شرط، على كل حال، وفي مقدّمة الشروط، بذل ما يمكن بذله من العمل، بحدود الطاقة، ولكن الله تعالى قد ربط بين الدعاء والإجابة (طرفي المعادلة) ربطاً مباشراً، ليعمّق في نفوس عباده علاقة الاستجابة بالدعاء، وعلاقة الدعاء بالاستجابة.

والرافد الآخر (التوبة): فإن العبد إذا تاب إلى الله تعالى صادقاً نصوحاً تاب الله عليه وهو قوله تعالى: ﴿**غافر الذنب وقابل التوب**﴾[1].

وهو قوله تعالى : ﴿**فأُولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً**﴾[2]. وهو تعالى التوّاب: ﴿**فسبّح بحمد ربّك واستغفره إنّه كان توّاباً**﴾[3].

والله تعالى يحبّ التوّابين: ﴿**إنّ الله يحب التوّابين ويحبّ المتطهّرين**﴾[4].

ويدعوهم إلى التوبة: ﴿**وتوبوا إلى الله جميعاً أيّها**

---

(١) غافر: ٣.

(٢) النساء: ١٧.

(٣) النصر: ٣

(٤) البقرة: ١٢٢.

المؤمنون لعلّكم تفلحون﴾[1].

إذن، مهما ضاقت الأُمور بالعبد ، أحبّ الله تعالى أن لا تستنفذ الأزمات أمل عبده، وفتح له باب الدعاء على مصراعيها.

ومهما كثرت الذنوب على الإنسان أحبّ الله أن لا تستهلك الذنوب رجاء عبده فيفتح الله تعالى عليه باب التوبة، إن كانت صادقة نصوحاً.

﴿قال يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً﴾[2].

إنّ آيات القرآن كلّها رجاء ورحمة وحكمة، ولكن هذه من أرجى آيات كتاب الله بالتأكيد.

يخاطب الله تعالى بها الذين أسرفوا من عباده بهذه الكلمة الجميلة **﴿قل يا عبادي﴾** وهي كلمة تفوح منها نكهة الرحمة والرأفة والحب ، رأفة الله بعباده وحبّه لهم. وهذا خطاب رحمة وحب.

كما يقول الأب لابنه: (ابني) بدل أن يسمّيه باسمه، ولو سمّاه خاطبه بالتأكيد، ولكن بين الخطابين فرق، ولو ناداه باسمه، لكان خطاباً لا شك في ذلك، ولكن أين هذ الخطاب عن خطاب (بُنيَ).

والمخاطب في خطاب الرحمة والحب هذا ليس

---

(١) النور: ٣١.

(٢) الزمر: ٥٣.

الصالحون من عباده، وإنّما الذين ﴿**أسرفوا على أنفسهم**﴾.

وليس بين ذنوب العباد وقبول التوبة من الله حجاب، إلا أن يقنط العبد من رحمة الله ﴿**لا تقنطوا من رحمة الله**﴾، وإلا أن يكابر العبد فيمضي في مفارقة الذنوب.

ويشمل خطاب الرحمة هذا كل ذنوب العباد من دون استثناء ﴿**إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾،

صحيح، أنّه لابد للعبد من التوبة، ولابد من صدق التوبة، وأن يكون ناصحاً في توبته.. وصحيح أنّ الله يعفر الذنوب جميعاً ، ولا يغفر أن يشرك به.

ولكن هذا الخطاب من سورة الزمر خطاب رحمة وحبّ، والله تعالى يريد أن يقرّب المسافة بينه وبين عباده في هذا الخطاب .. وكأنّه ليس بينه وبين رحمة الله ومغفرته، إلا أن لا يقنط العبد ... من رحمة الله.

لك الحمد يارب، ما أرحمك وأجلّك وأرأفك بعباده، وما أعظم رحمتك ورأفتك وحبّك لعبادك.

ونستغفرك اللهم من جرمنا وذنوبنا فما أعظم جرمنا وإسرافنا بين يديك.

نحمدك على جميل رحمتك ورأفتك ونستغفرك عن قبيح ما كان منّا في حياتنا.

والرافد الثالث الشفاعة للعصاة من هذه الأُمة ، الذين تقصر أعمالهم عن اللحوق بالصالحين، فإذِن الله تعالى لأوليائه الصالحين من عباده أن يشفعوا لعصاة الأُمة، تكريماً لهم، ورحمة بالمذنبين من عباده.

كيف نتعامل مع الإبتلاء

قد تضيق حلقات الإبتلاء بالمؤمنين ، في حالات البأساء والضرّاء، حتّى تضيق عليهم الأرض بما رحبت... فكيف يتعاملون مع الإبتلاء؟

إن كثيراً من الناس يفقدون السيطرة على أنفسهم في حالات الإبتلاء، وتضيق نفوسهم بها...

ولابدّ أن يعرف المؤمنون المنهج الصحيح للتعامل مع الإبتلاء، لكي لا يخسروا مكاسب الإبتلاء في الدنيا وجزاء الإبتلاء في الآخرة.. فإن للابتلاء في الدنيا مكاسب وفي الآخرة جزاءاً عظيماً . والجزع في الإبتلاء يفقد الإنسان الأمرين معاً.

وقد علّمنا الله تعالى أن نتعامل مع الإبتلاء من خلال (الصبر) و(الأمل).

يقول تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1]، أُولئك يرزقهم الله صلواتٍ وبركاتٍ ورحمةً

---

(١) البقرة: ١٥٤ ـ ١٥٥.

من عنده، وناهيك بذلك:

ويقول تعالى: ﴿**كَمْ مِن فِئَة قَلِيلَة غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾(١).

ونقرأ في آل عمران هذه الآيات العجيبة التي تستوقف الإنسان وتملأ النفوس الإيمان ثقة بالله وطمأنينة وسكينة.

﴿**وَكَأَيِّنَ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ* وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ* فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾(٢).

إن الله عز وجل يرزقهم، بما صبروا، الثواب في الدنيا وفي الآخرة.

وجعل الله تعالى الصبر من مفاتيح النصر:

﴿**الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِنكُم مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾(٣).

---

(١) البقرة: ٢٤٩.

(٢) آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨.

(٣) سورة الشرح : ٤ ـ ٥.

إن الله تعالى ينصر القلّة الصابرة على الكثرة المترفة التي تبتغي البطر والرئاء والفساد على وجه الأرض.

وهذا هو المنهج الأوّل للتعامل مع الإبتلاء.

والمنهج الثاني للتعامل مع الإبتلاء : (الأمل) و(انتظار الفرج) والتيسير من عند الله.

يقول تعالى: ﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً**﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿**سيجعل الله بعد عسراً يسراً**﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿**ونيسرك لليسرى**﴾[3].

فكما أن سنّة الإبتلاء عامة، كذلك سُنّة الفرج بعد الشدّة سُنّة إلهية حتمية في دورة التاريخ، فلن يبتلي الله تعالى عباده بإبتلاء في دنياهم وعاقبتهم إلاّ ويعقب هذا الإبتلاء بالفرج والرخاء بشروط نذكرها.

يقول تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى**﴾[4].

﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً**﴾[5]. ﴿**وَمَن يَتَّقِ**

---

(١) الشرح : ٥ ـ ٦.

(٢) الطلاق: ٧.

(٣) الأعلى: ٨

(٤) الليل: ٥ ـ ٧.

(٥) الطلاق: ٢.

اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾[1]. وهذه بعض شروط الفرج واليسر.

وتأكيدات القرآن وإشاراته إلى ذلك كثيرة، وهذه الآيات بمجموعها ترسم حدود هذه السنّة الإلهية.

يسر مع العسر وليس بعده.

ومن رقائق التعبير في سورة الشرح قوله تعالى: **﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾** واليسر يأتي بعد العسر عادة، ولكن القرآن يريد أن يقرّب اليسر إلى العسر للناس، ويوحي إليهم بالتصاق اليسر بالعسر، فيعبّر عن هذا التجاور والتعاقب القريب بين اليسر والعسر بكلمة (مع) **﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾**[2].

وهو من رقائق تعبير القرآن، فإن لكلمة (مع) من الظلال والأداء والجرس ما ليس لكمة (بعد).

عسر واحدلا يغلب يسرين

ومن لطائف التعبير في آيتي اليسر تنكير اليسر في الآيتين ، وتعريف العسر فيهما بالألف واللام **﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾**. والقاعدة: إن المعرفة إذا أعيدت في الكلام المتصل على نحو التعريف، كان المقصود به الشخص الأوّل نفسه، بخلاف النكرة إذا أعيدت

---

(١) الطلاق:٤.

(٢) الشرح : ٥ ـ ٦.

في الكلام المتصل على نحو التنكير، فلا يدلّ على أنّ المقصود منها الشخص الأوّل نفسه.

فإذا قلنا: (إذا كسبت الدينار فانفق الدينار) كان المقصود نفس الدينار، وإذا قلنا: (إذا كسبت ديناراً فانفق ديناراً) لا تدلّ الجملة على أنّ المقصود بالدينار الثاني، الدينار الأوّل نفسه.

وفي آيتي اليسر في سورة الإنشراح ورد اليسر على نحو التنكير في الآيتين ، بينما ورد العسر فيهما على نحو التعريف... فلابدّ أن يكون المقصود من العسر فيهما عسراً واحداً، بخلاف اليسر.

والسرّ في ذلك، أن الألف اللام في العسر الثاني للعهد، وهو إشارة إلى العسر الأوّل، فيكون واحداً بخلاف اليسر.

وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك ويقول: «**لن يغلب عسر يسرين**»، ﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً**﴾[1].

وعن ابن عباس قال: (يقول الله خلقت عسراً واحداً وخلقت يسرين، فلن يغلب عسر يسرين)[2].

عن سهل بن سعد الساعدي أن سول الله صلى الله عليه وآله قال لعبدالله بن عباس: «**ألا أعلمّك كلمات تنتفع بهن؟** قال:

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٣٨٦.

(٢) تفسير مجمع البيان للطبرسي ١٠: ٣٩٠.

بلى يا رسول الله. قال: **أحفظ الله يحفظك، إحفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدّة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، جفَّ القلم بما كان وماهو كائن، ولو جهد العباد أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضرّوك بشيء لم يكتبه الله عليك لما قدروا، فإن استطعت أن تعمل لله بالصدق في اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»**[١].

وعن علي عليه السلام: «**إنّ الله تعالى جعل مع كل قحط خصباً، ومع كل مأساة رخاء**».

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أيضاً: «**لا يعدم الصبور الظفر، وإن طال الزمان**»[٢].

الدعاء باليسر بعد العسر

وقد ورد في الدعاء طلب اليسر بعد العسر كثيراً.

ومن ذلك: «**واجعل لنا من أمرنا يسراً، واختم لنا**

(١) الفرج بعد الشدّة ١: ٢٧.

(٢) بحار الأنوار ٦٨: ٩٥ ح ٦٠.

بالسعادة إلى منتهى آجالنا»[١].

وفي دعاء الأسحار: «**اللهمّ يسّر لي ما أخاف تعسيره، فإن تيسير ما أخاف تعسيره عليك سهل يسير، وسهل لي ما أخاف حزونته، ونفّس عنّي ما أخاف ضيقه، وكفّ عني ما أخاف همّه، واصرف عنّي ما أخاف بليته، يا أرحم الراحمين»**[٢].

وعي العسر

(العسر) و(اليسر) سُنّتان إلهيتان حتميتان،ووعي هاتين السُنّتين يمكّن الإنسان من الانتفاع بهما والإفادة منهما، فإنّ الناس ـ كلّ الناس ـ يخضعون لسنن الله، وعوا هذه السنن أم لم يعوها، غير أن الذي يعي السنّة يتحمّل السنّة وينتفع منها بشكل أفضل، والذي لا يعي السنّة تشق عليه (إذا كانت ابتلاءً)، ويخسر كثيراً من مواقع الاستفادة من هذه السنن[٣].

الأمل والقضاء والقدر

يبقى أن نتساءل: ماهو موقع الأمل في منظومة سنن الله في المجتمع والتاريخ ، إذا عرفنا أن لله تعالى قضاءً وقدراً حتماً، لا سبيل إلى تغييره وتبديله ﴿**فلن تجد لسنّة الله**

(١) مصباح المتهجد للطوسي : ٨١٤، دعاء يوم السابع والعشرين من رجب.

(٢) مصباح المتهجد : ٦٠١.

(٣) دروس من سورة الشرح لكاتب هذه السطور.

تبديلاً، ولن تجد لسنّة الله تحويلا﴾[1].

إنّ سنن الله تعالى في التاريخ والمجتمع يتصف بالحتمية القطعية، لا تتبدّل ولا تتحوّل، كما هو الشأن في سنن الله تعالى في الكون، لا تتبدّل ولا تتغير مثل قوانين الكيمياء والفيزياء والمكانيك؛ وإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، فأين موقع الأمل في التعامل مع منظومة السنن الإلهية في التاريخ والمجتمع.

فإنّ هذه السنن تجري في المجتمع والتاريخ بصورة حتمية، ضمن قانون (القضاء والقدر) ولا سبيل للإنسان لتغييرها وتبديلها.

فكيف يبقى للإنسان المؤمن أمل في ذلك؟

والجواب جوابان:

أما الأوّل: فإن قضاء الله حتم، ولكن حتمية القضاء لا تنفي إختيار الإنسان، فإنّ الإنسان حرّ في الأختيار، وحتمية القضاء لا تسلبه حرية الاختيار، ولكن النتائج المترتبة على إختياره حتمية، وإلى ذلك يشير قوله تعالى:

﴿إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[2].

فهناك تغييران إثنان أحدهما حرّ والثاني حتم، والثاني نتيجة الأوّل ويتبعه.

---

(١) فاطر:٤٣.

(٢) الرعد: ١١.

الطالب الذي يدرس ويجتهد ينجح والذي يكسل ويهمل نفسه يفشل ... وهذه النتائج حتميه ولا تنافي هذه النتائج الحتمية إختيار الإنسان.

روي أن أمير المؤمنين عليه السلام مرّ يوماً تحت حائط مائل، فأسرع في المشيء، فقيل له: أتفر يا أمير المؤمنين من قضاء الله تعالى؟! فقال عليه السلام: « **نعم، أفرّ من قضاء الله إلى قدره**»[1].

ومعنى ذلك أن لله تعالى قضائين ، كل منهما حتم؛ القضاء الأوّل لمن يعرض نفسه لمواضع الخطر، فيصيبه الخطر بالضرورة، وهذا هو الضاء الحتم الأوّل.

والقضاء الحتم الآخر: أن من يتّقي مواضع الخطر يسلم من الخطر، وهذا قضاء حتم آخر.

وللإنسان أن يختار لنفسه أيّاً من القضائين وهذا هو الجواب الأوّل.

والجواب الثاني : إن لله كتابين اللوح المحفوظ ولوح المحو والإثبات.

يقول تعالى: ﴿**يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾[2].

ويجري المحو والإثبات والتغيير في الكتاب الثاني

---

(1) عوالي اللئالئ ٤: ٣٣، بحار الأنوار ٥٦: ٣، وشرح أُصول الكافي للمولى محمّد صالح المازندراني ٨: ٨.

(2) الرعد: ٣٩.

حسبنما نقرأ في آية (الرعد : ٣٩)

سنة الإبتلاء وسنّة اليسر

والسؤال الآخر الذي نود أن نطرحه هنا في علاقة الإبتلاء والعسر بسنة اليُسْر.

إنّ الفتنة والإبتلاء من السنن الإلهية الحتمية المطلقة الشاملة التي لا يخلو منها أحد.

يقول تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشَيْء مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْص مِنَ الْأَمْوَال وَالْأَنْفُس وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّر الصَّابرينَ* الَّذِينَ إذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إنَّا لِلَّهِ وإنَّا إلَيه رَاجِعُونَ**﴾[1].

ولا سبيل لأحد أن يتخلّص من هذه السنة، إينما يكون ؛ فإذا عرفنا أن الإبتلاء سنّة حتمية مطلقة، وأن الله تعالى يبتلي عباده، حتّى تضيق بهم الأرض، وتضيق بهم أنفسهم، أحياناً ﴿**حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم**﴾[2]، ولا يسع المؤمنين أن يدخلوا الجنّة، إلا من خلال البأساء والضرّاء والإبتلاء... نتساءل أين يقع الأمل

(١) البقرة: ١٥٥.

(٢) التوبة: ١١٨.

في اليسر ، هذه الحتمية في العسر والإبتلاء.

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾(١).

والجواب: إنّ الله تعالى حدّد للمؤمن زاوية النظر إلى الإبتلاء أوّلاً وبيّن لهم وعي الإبتلاء والفهم الصحيح لسنّة الإبتلاء ثانياً، وهما مسألتان:

الأُولى: أن الإبتلاء للمؤمن تمحيص وليس بمحق ، فلا ينال الصبر إلا بالإبتلاء، ولا يدخل الجنّة إلا بالإبتلاء ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ* أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾(٢).

والمؤمنون ينظرون إلى الإبتلاء والفتنة من هذه الزاوية وأنها تمحيص لهم وتهذيب وتزكية وليس (الإبتلاء) غضب

(١) البقرة: ٢١٤.

(٢) آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤٣.

ونقمة من عند الله .

والثانية: أن في بطن الابتلاء يسراً وفي بطن العسر يسراً، **﴿فإنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً* إنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾**[1] .

يقول تعالى: **﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيء قَدْراً﴾**[2].

الإنتظار

ومن هنا نشتق المفهوم الصحيح للانتظار... وللعلاقة الوثيقة بين الانتظار والأمل لابدّ أن نقف هنا وقفة قصيرة عند مفهوم الانتظار.

الانتظار واحد من أهم مكوّنات ثقافتنا الإسلامية في القرآن والسنّة.

وقد جاء في كتاب الله: **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُور مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ«١٠٥»﴾**[3] .

وقد وردت روايات كثيرة من طريق الفريقين بأسانيد صحيحة لا سبيل للتشكيك منها بظهور الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف من آل محمّد صلّى الله عليه وآله من ذرّية فاطمة عليها السلام، ومنذ ذلك الحين

---

(١) الشرح : ٥ ـ ٦.

(٢) الطلاق: ٢ ـ ٣.

(٣) الأنبياء: ١٠٥.

أصبح (الانتظار) جزءً من ثقافة هذه الأُمّة، بكل فرقها وشرائحها.

وإذا كان الانتظار يحمل هذه القيمة الثقافية العالية كان لابدّ من تحديد دقيق لمعنى الانتظار.

فإنّ من الناس مني يتصوّر أن انتظار ظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف يشبه الانتظار الذي يعرفه الناس في الأُمور الكونية كانتظار الربيع والصيف وكسوف الشمس وخسوف القمر ونزول الأمطار.

وهو تصوّر غير صحيح بالتأكيد ، فان الانتظار في سنن الله تعالى في التاريخ والمجتمع يختلف عن انتظار سنن الله تعالى في الأمور الكونية.

إنّ معنى الانتظار في الأمور الكونية يقرب من معنى (الرصد) كمن يرصد خسوف القمر وكسوف الشمس... لأن هذه السنن تجري في الغالب بصورة مطلقة مستقلة عن إرادة الإنسان[1]... بينما السنن الإلهية في التاريخ والمجتمع تجري على النحو المشروط غالباً، وترتبط بإرادة الإنسان وعمله وجهده، وذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى**

(١) وإرادة الإنسان تدخل في تنظيمها والاستفادة منها. مثل تنظيم الاستفادة من الأمطار في السقي والري والاستفادة من الشمس في انتاج الطاقة الشمسية.

يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(1).

ويقولَ تعالى: ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾(2).

﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾(3).

﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً**﴾(4).

بل قد تجري سنن الله تعالى التكوينية المرتبطة بحياة الإنسان على نحو التعليق أيضاً.

يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾(5).

إنّ وعد الله تعالى بنصر المؤمنين المستضعفين على المستكبرين الظالمين حقّ، ولكنّه مشروط، وشرطه الإيمان والعمل الصالح. ولتحقيق وعد الله لابدّ من تحقيق هذا الشرط، يقول تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ**

(1) الرعد: 11.
(2) سورة محمّد: 7.
(3) سورة إبراهيم: 7.
(4) الطلاق: 2 ـ 3.
(5) الأعراف: 97.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُـمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾[1].

وهذا وعد الله، في كتاب الله، بوضوح ليس فوقه وضوح.

لقد وعد الله تعالى المؤمنين الصالحين: أن يجعلهم خلفاء في الأرض.. ومعنى الاستخلاف في الآية الكريمة: أن ينقل إليهم القوّة والعلم والسلطان والمال والإعلام والنفوذ من الطغاة والجبابرة ، في الشرق والغرب، وهذا هو **الوعد الأوّل**، وفيه يتحقّق الانتقال الصعب للقوّة والمال والعلم والسلطان من أيدي الظالمين إلى إيدي الصالحين من عباد الله.

والوعد الثاني: **﴿وَلَيُـمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾** وهو تمكين هذا الدين من حياة الناس، وفي أقاليم الأرض الشاسعة ، وتمكين المسلمين من تقرير دين الله وأحكامه وحدوده في حياة الناس على وجه الأرض ، وإزالة الحواجز عن طريق هذا الدين وبسط نفوذه وسلطانه.

والوعد الثالث: **﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾**.

---

(١) النور: ٥٥.

فقد كانوا يعيشون في خوف وقلق ، يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم فبدّلهم الله تعالى بالخوف أمناً وسكينة وطمأنينة ، يعبدون الله تعالى وحده، لا يشركون به شيئاً.

يروي الربيع بن أنس عن أبي العالية في هذه الآية الكريمة:

كان النبيصَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَآلِه وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين، يدعون إلى الله وحده... وهم خائفون، فلمّا قدموا المدينة أمرهم الله تعالى بالقتال، فكانوا خائفين، يمسون في السلاح، ويصبحون في السلاح، فصبروا على ذلك ما شاء الله.

ثم إن رجلاً من الصحابة، قال : يا رسول اللهصَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَآلِه: أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟! أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟

فقالصَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَآلِه: «**لن تغبروا ــ أي لم تمكثوا ــ إلا يسيراً، حتّى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً، ليس فيهم حديدة**».

أقول : هذا كلّه وعده الله تعالى، ولا ريب في وعد الله، وأن الله ينجز وعده.

ولكن بشرط الإيمان والعمل الصالح. ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾(١).

(١) النور: ٥٥.

وعندما يقبل الناس على عبادة الله تعالى يعبدونه، لا يشركون به شيئاً ﴿**يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً**﴾[1].

وفي ظنّي، والله العالمَ: إن هذه الجملةَ مستأنفة، تأتي في الجواب على سؤال مقدّر تقديره: إنّ هذه الوعود الإلهية الثلاثة تتحقق في حياة الناس، بالكامل عندما يقبلون لناس على عبادة الله، لا يشركون به شيئاً.

هذا هو الوعي الراشد للإنتظار، إنّ الإنتظار هو موقع وعد الله تعالى في الفرج القريب، لا شك في ذلك ولكن لابدّ للمؤمنين من تحقيق هذا الوعد بالإيمان والعمل الصالح والتوحيد الذي لا يشوبه شرك.

إنّ المعنى الصحيح لانتظار الفرج وظهور الإمام المهدي من آل محمد عجل الله تعالى فرجه الشريف: هو العمل الجاد لتحقيق وعد الله في الأرض، وإعداد الأُمّة الإسلامية بعرضها العريض لاستقبال ظهور الإمام، وإزالة الظلم والشرك من على وجه الأرض، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المكر ، وجهاد الظالمين والدعوة إلى الله، وإعداد الجيل الصاعد لتوطئة الأرض للانقلاب الكوني الكبير الذي يجري على وجه الأرض بإذن الله تعالى... وليس الانتظار في هذا الشأن العظيم كما نرصد حدثاً كونياً كالخسوف والكسوف، وليس بمتابعة علامات الظهور، وإنّما بالعمل والاهتمام بعوامل الفرج والظهور.

---

(١) النور: ٥٥.

توازن الخوف والأمل في النفس

الخوف والرجاء حالتان في العبد تجاه الله تعالى ، والله تعالى يريد من عباده الحالتين معاً: أن يخاف عباده بأسه وغضبه ، وأن يرجو عباده فضله ورحمته.

وفي منهج التربية في الإسلام، نجد إهتماماً كبيراً بتوازن الخوف والرجاء في نفس الإنسان، حتّى لا يطغى الخوف على الرجاء، ولا يطغى الرجاء على الخوف، فإن طغيان الخوف على الرجاء يضعّف في نفس الإنسان رجاء رحمة الله، وهو أمر ضار بالتأكيد، وطغيان الرجاء على الخوف، يضعّف الخوف في نفس الإنسان، وهو أمر ضار بسلامة النفس.

إنّ النفس إذا تجرّد عن الخوف يوقع الإنسان في معصية الله ويفتح نوافذ النفس على الشيطان ليتسلل إلى داخل النفس،والخوف المجرّد عن الأمل يوقع الإنسان في ظلمات اليأس من رحمة الله. واليأس من رحمة الله على حد الكفر ﴿**لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ**﴾[1] . وفي وصية يعقوب عليه السلام إلى أبنائه ﴿**وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾[2] .

---

(١) الزمر: ٥٣.

(٢) سوف: ٨٧ .

ولذلك يهتم القرآن بتثبيت حالة الرجاء والخوف من الله في نفس الإنسان بصورة متعادلة ومتوازنة.

يقول تعالى: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ**﴾(١).

ويقول تعالى: ﴿ **يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ**﴾(٢).

في دعاء أبي حمزة الثمالي: «**إذا رأيت مولاي ذنوبي فزعت، وإذا رأيت كرمك طمعت**» «**ولك خالص رجائي وخوفي**».

وسأل الحرث بن المغيرة أبا عبدالله عليه السلام ما كان في وصية لقمان؟

قال: «**كانت بها الأعاجيب، وكان أعجب ما فيها أن قال لابنه : خف الله خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذّبك، وأرج الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك**».

ثم قال أبو عبدالله عليه السلام كان أبي يقول : «**ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران نور خيفة ونور رجاء، ولو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا**»(٣).

---

(١) الحجر: ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) الزمر: ٩.

(٣) وسائل الشيعة ١١: ١٦٩.

وعن الصادقعليه السلام: «**أرج الله رجاءً لا يجرؤك على معصية الله وخف الله خوفاً لا يؤايسك من رحمته**»[1].

وقد ورد هذا المعنى في توجيه المربّين إلى المنهج التربوي الصحيح في حديث رسول اللهصلى الله عليه وآله وأهل بيتهعليهم السلام.

عن رسول اللهصلى الله عليه وآله: «**ألا أخبركم بالفقيه كل الفقيه؟** قالوا: بلى رسول الله. قال: إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من روح الله، ولا يؤمّنهم مكر الله، ولا يقنطهم من رحمة الله»[2].

الأمل المذموم

ونختم هذا البحث بعد هذه الجولة الواسعة في الإبتلاء والأمل بالحديث عن الأمل المذموم وهو أن يضع الإنسان أمله في الدينا، وكأنه لا يدركه الموت، ويبني حياته وطموحاته على البقاء في الدنيا من دون حدود.

وهذه الحالة واحدة من أخطر الأمراض النفسية في حياة الإنسان تحجب الإنسان عن الموت وذكر الآخرة والإعداد للقاء الله تعالى وبالتالي تحجب الإنسان عن الله.

والذين يقعون في شرك هذه الحالة النفسية تستهلكهم

---

(١) مشكاة الأنوار ١: ٣١، جامع الأخبار ٢٩/٧٠٣.

(٢) أعلام الدين في صفات المؤمنين، غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦٠، عون الحكم والمواعظ ١: ٤٤، عوالي اللئالئ ٤: ٢٢.

الحياة الدنيا، وتستفرغ كل جهدهم وعملهم للحياة الدنيا، فإذا جاء أجلهم يذهبون إلى الله تعالى من غير إعداد ولا تحضير.

وقد ورد ذم كثير لطول الأمل في الدنيا في القرآن والسنّة.

يقول تعالى: ﴿**ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ**﴾[1].

والتعبير دقيق: ﴿**وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ**﴾ إن الأمل ـ في أمثال هذه الحالات المرضية ـ يَحجب أصحابه عن الموت والدار الآخرة، والتحضير للانتقال الصعب إلى لقاء الله تعالى ، وهو من أخطر مصاديق اللهو والغفلة في حياة الإنسان.

إن الحياة الدنيا تشغل كل اهتمام الإنسان، إذا لم يسع الإنسان لاستذكار الموت، وتوزيع اهتماماته بصورة صحيحة، وبمقاييس دقيقة بين الدنيا والآخرة... وعندئذٍ ينسى الإنسان الموت وتستهلك الدنيا كل آماله وطموحاته، وتتحوّل الدنيا إلى حجاب بينه وبين الآخرة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**واعلموا أن الأمل يسهي العقل، وينسي الذكر، فاكذبوا الأمل، فإنّه غرور وصاحبه مغرور**».

إنّ الأمل ينقلب إلى حجاب للعقل يسهي العقل،

---

(١) الحجر: ٣.

وحجاب للقلب ينسي الذكر.

والعلاج الذي يذكره الإمامعليه السلام لهذه الحالة أن يكذّب الإنسان الأمل أي يرفضه، فإن الأمل غرور يغرِ الإنسان ويخدعه «**فاكذبوا الأمل فإنه غرور**». ويسمّى الإمامعليه السلام هذه الآمال التي تخدع أصحابها، وتريهم الأشياء بغير هيئتها الحقيقية بـ (كواذب الآمال).

يقولعليه السلام: «**حضرتكم كواذب الآمال**» وهي مصيبة حقيقية في حياة الإنسان أن يقع الإنسان في حصار كواذب الآمال، ولكي يخترق الإنسان حصار كواذب الآمال .. عليه أن لا يضع أمله كله في الدنيا، ولا يسكن إلى الدنيا، ولا يخلد إليها.

وليس معنى ذلك أن يهجر الإنسان الدنيا ويعزلها، وإنّما المعنى أن لا يتعلّق الإنسان بالدنيا ويضع فيها كل آماله وطموحاته فتحجبه الدنيا عن الآخرة.

وهذا هو العلاج الذي يصفه الإمامعليه السلام لمن يسقطون في شرك حصار كواذب الآمال.

يقولعليه السلام: «**إنّ الدنيا تغّر المومل لها والمخلد إليها**».

وللإمامعليه السلام كلمة أخرى في هذا السياق يقولعليه السلام: «**إنّما هلك مَن كان قبلكم بطول آمالهم ، وتغيب أحلامهم**»[١] .

إنّ سبب هلاك الأقوام والأُمم والحضارات تحضير

---

(١) الأحلام : جمع حلم بمعنى العقل والحكمة والأناة.

الآمال في الدنيا وحصرها فيها وتغييب العقول. والعكس هو الصحيح الذي ينبغي أن يعمله الإنسان.

وهو تعديل الأمل في الدنيا، وتحضير العقول فيها، فإن الآمال إذا تركّزت في الدنيا حجبت صاحبها عن الآخرة، وإذا أحضرت العقول خرقت العقول حجب الغفلة والأمل، وحرّرت أصحابها من حصار كواذب الآمال.

ونقرأ لرسول الله صلى الله عليه وآله حديثاً هو من أُصول منهج التربية في الإسلام، وقد تكرّر ذكر هذا المعنى في أحاديث أهل البيت عليهم السلام كثيراً.

ويشير الحديث إلى وجود حجابين في نفس الإنسان يحجبانه عن الله وعن الحياة الآخرة، وهذان الحجابان هما «الأمل» و«الهوى».

يقول صلى الله عليه وآله : «**إن أخوف ما أخاف على أُمّتي الهوى، وطول الأمل. فإما الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة**»[1].

إنّ الحديث دقيق، وبحاجة إلى وقفة طويلة عنده، لا يتسّع لها المقام.

إنّه يشير إلى حجابين يحجبان الإنسان عن الله والحق

(١) مشكاة الأنوار للطبرسي ١: ٦٦ و ١٨٧ ، أمالي المفيد : ٢٢٢، أمالي الطوسي : ١٢٩ و٢٦١، غرر الحكم ودرر الكلم ١: ٢١٢، عوالي اللئالئ ٢: ١٦ و٤: ٢٧ ، ميزان الحكمة ١: ١٠٣ و٤: ٤٩ ، بحار الأنوار ٢: ١٠٦ و١١٠ و٣٢: ٣٥٥.

والهدى وعن الدار الآخرة، وهما (الهوى) و(الأمل).

ولكي يسْلمْ الإنسان من هذين الحجابين عليه أن يمارس تعديلاً واسعاً وتصحيحاً شاملاً في هواه وفي أمله.

ويتم هذا التعديل من خلال منهج التربية الإسلامية.

وأخيراً لابدّ للإنسان أن يصحح الطريقة التي ينظر بها إلى الدنيا.

وهي مسألة على درجة عالية من الأهمية، وفي نفس الوقت دقيقة ورقيقة. ولو أن الإنسان تمكّن من النظرة الصحيحة الرائدة إلى الدنيا لم تغره الدنيا، ولم يسكن إليها، ولا يضع فيها آماله وطموحاته.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في الطريقة الصحيحة الراشدة للنظر إلى الدنيا:

«من أبصر بها بَصرته ، ومن أبصر إليها أعمته».

من أبصر بالدنيا يعني أعتبر بها وتقلباتها وعبرها وبسرعة الزوال والفناء إليها... تبصّره الدنيا وتكسبه وعياً وفهماً وبصيرة، ومن أبصر إليها وإلى زينتها وزخرفها وزهوها، وانشدّ إليها تعميه الدنيا.

إذن للمنهج الصحيح للنظر والإبصار دور في سلامة الإنسان وهلاكه: إنّ أبصر بالدنيا تُبَصّره وأن أبصر إلى الدنيا تعميه.

والإبصار إلى الدنيا هو الذي تحدّثنا عنه من التعلّق بالدنيا ، والسقوط في حصار كواذب الآمال.

الفهرس